بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من الثابت أن التاريخ هو المصحح لكافة أنواع التخصصات فى البحوث والدراسات الاجتماعية ، حيث أنه أوسعها انتشاراً لشموله على جوانب الحياة ، والظواهر التاريخية فى تعاقبها توضح تكرار البشر لأخطائه والكشف عن هذه الأخطاء ؛ وقد أوضح المؤرخون المسلمون مدى غزارة نفع المعرفة التاريخية وكثرة فوائدها ؛ فيه إحياء ذكرى الأولين والآخرين من علمائها .

وليس بالضرورة أن التاريخ الإنسانى قد تطور تطوراً واحداً مستمراً ليمثل خطاً متصلاً – على حد قول أحد الباحثين [1] وإنما استقراء التاريخ يقود إلى أن مناطق معينة قد أنتجت « حضارة » و« ثقافة » فى مراحل وفترات معينة ومتعاقبة وكان لها تأثيرها فى حضارات أخرى ؛ فالحضارة الإسلامية – وهى بؤرة الاهتمام فى الكتاب الذى بين أيدينا – قد برزت خطوطها التصاعدية وإبداعاتها القيمة فى العالم الإسلامى برمته ، ومع ذلك فقد أفادت أيضاً حضارتى اليونان والرومان فى ميادين مختلفة .

إن دراسة تاريخ الإسلام الحضارى والسياسى لا غنى عنها للباحثين فى مجال المعارف الاجتماعية ؛ ومن هنا تبرز أهمية الدراسة التى بين أيدينا لأنها تمس بالدرجة الأولى الأمة الإسلامية وتاريخها ودورها الإنسانى من ثنايا عمل علمى جاد يستهدف الاجتهاد فى الكتابة على أساس من الوقائع والحقائق والوثائق والمخطوطات السياسية وتبلور دورها فى الحياة السياسية فى العالم الإسلامى والعربى من ثنايا منهجية

---

(١) دكتور / حسين محمد ، المدخل إلى دراسة علم التاريخ ، دار الاصلاح ، الدمام ، المملكة العربية السعودية .

تفسير التاريخ العربى وتحليله من ثنايا الجهود الجبارة التى بذلها المؤرخون المسلمون الأوائل والعلماء من أهل السنة والجماعة من أئمة الفقهاء والمحدثين والذين حفلت مصادرهم بالأخبار الصحيحة ، على نحو ما ورد فى هذا الكتاب ، ومنهم ابن كثير فى البداية والنهاية ، وابن تيمية فى مناهج السنة ، وابن حجر فى لسان الميزان والصفى الخزرجى فى خلاصة تذهيب الكمال .

وإذا كان الفضل يرجع لأهله ، فإن المؤرخين العرب المحدثين قد قاموا بدور بارز فى إعادة كتابة تاريخ الإسلام السياسى من مصادره ، وبلغة العصر فى منهجية تتسم بتنظيم المادة العلمية بعد جمعها ثم تنسيقها وتبويبها .

وإذا كان علم السياسة يتأثر إلى حد كبير باللينونة التى تلازم حدود نطاق البحث ، فإن تشعب موضوعاته قد أدى إلى هذه الصلة الوثيقة بينه – كعلم ناشىء حديثاً – وبين علم التاريخ ، ومع ذلك – وعلى نحو ما سوف يرد فى الكتاب من نماذج فى مخطوطات سياسية تمت دراستها وتحقيقها والتعليق عليها – فسوف نصل إلى نتيجة مفادها أهمية الاعتبارات والعوامل السياسية التى أثرت فى سياق كل مرحلة من مراحل التطور التاريخى للدولة الإسلامية وطبيعة الظواهر السياسية .

بقيت نقطة أخيرة نحاول أن نستعرضها ضمن الآراء فى الارتباط بين المعرفة التاريخية والسياسية المستمدة من المخطوطات أن وظيفة عالم السياسة تختلف بالطبع عن وظيفة المؤرخ ، فالمؤرخ يقوم بترتيب الوقائع وسردها فى سياق زمنى معين ، فى حين يستخدم عالم السياسة دلالات الماضى ودروسه المستفاده كمنطلقات للتنبؤ بالاتجاهات المستقبلية ، غير أننا نبادر إلى القول أن عدداً كبيرا من الوقائع والأحداث التاريخية كان مصدراً لاستحداث العديد من النظريات السياسية ، وإن النظريات

السياسية – بالمقابل – قد أدت هى الأخرى إلى المساهمة اسهاماً مباشراً فى قيام أحداث تاريخية دفعت بالجماهير إلى التشبث بتلك الأفكار للمطالبة بالاصلاح .

وبعد : فإن الكمال لله وحده ، وإنى لأرجو أن أكون قد اسهمت بهذا العمل المتواضع مع الانجازات الضخمة – التى بذلها اساتذتنا ومؤرخونا العظام فى مصر والوطن العربى – فى إبراز الجهود الرائدة التى قام المؤرخون المسلمون والعلماء الأوائل لبناء مجتمع إنسانى أفضل .

والله وحده الموفق والمستعان

محمد نصر مهنا

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيـــر

التاريخ والتجريب

هناك تساؤل جوهرى عن ارتباط التاريخ بالنظم السياسية فهل يبدأ التاريخ بظهور نظام سياسى مستقر أوبقيام الحكومة الأولى فى حياة الإنسان ؟ .

أو أن التاريخ يبدأ بقيام أول مجتمع بشرى منظم ، سواء فى شكل أسرة كبيرة أو قبيلة أو قرية أو مدينة ، ثم من مجموع تلك الأسر والقبائل والقرى والمدن قامت الدولة الأولى فى تاريخ الإنسان .

ومن ناحية أخرى هل يمكننا القول أن تاريخ الإنسان يبدأ فى مصر ، وذلك إذا أخذنا بالافتراض القائل بأن التاريخ يبدأ بقيام نظام سياسى للإنسان ، ذلك أن قيام نظام سياسى يعنى تطوراً اقتصادياً واجتماعياً ، ونضوجاً فكرياً ، واكتمالاً عقلياً ، وصقلاً دينياً للإنسان .

وهل التاريخ يعنى نشأة الإنسان وتطوره مرتبطاً بماضيه بمعنى أن التاريخ يدرس حوادث الماضى ، ولا يعنى بالحاضر ، ولا يهتم بالمستقبل ، ورغم ظهور تفسيرات جديدة بماضيه ، وقياساً على تجارب الماضى ، يمكن للإنسان أن يعمل من أجل حاضر أفضل ومستقبل أكثر إزدهاراً ورخاء .

وهذا يؤكد أنه لكى يتسنى للإنسان أن يبنى مستقبلاً أكثر إشراقاً وأعظم تطوراً من حاضره وماضيه ، لابد أن يدرس الماضى بكل أبعاده وتجاربه ومشكلاته ، وما جرى من حروب وخلافات ومنازعات وما شاهده الإنسان من ظواهر طبيعية متغيرة ، وهجرات سلمية أو عدائية ، فدراسة الماضى جزء من الإعداد للمستقبل فضلاً عن أنها تأمين للحاضر القريب .

وقد استطاع الإنسان أن يميز فترات تاريخه الطويل ، وأن يجعل من كل حقبة من حقب التاريخ فصلاً رائعاً من فصول كتاب يشفى غليل الباحث فى البحث عن الحقيقة ، ويعينه على الوصول إلى فهم تاريخ الإنسان .

والتاريخ يمثل معاناة الإنسان ، فقد عانى العقل البشرى ، ومارس أنواعاً من التجارب لا يمكن للمؤرخ مهما حاول استقراء الماضى ، ومهما حاول استرجاع الأحداث وتخيلها ، ومهما بذل فى تصورها ، فإننى اعتقد أن معاناة الإنسان صانع التاريخ على الأرض أكبر من كل تصور يرقى إلى الإحساس بها وإدراك أبعادها .

والتاريخ هو العمر العقلى للإنسان ، ممثلاً فى حياته بكافة مظاهرها العمرانية والحضارية ، وليس معنى ذلك أن ينسى المؤرخ تتابع الأحداث أو ترتيبها ، أو الأشخاص المؤثرين فيها ، أوالعصور السياسية التى وضعها المؤرخون .

وهناك تساؤل آخر لايقل أهمية عن التساؤل الأول وهو هل يمكن للمؤرخ أن يضع نفسه فى عداد العلماء التجريبيين باعتباره فرعاً من فروع العلم والمعرفة ، وهل يمكن تبعاً لذلك أن يكون التاريخ علماً من العلوم مثل الطبيعة والطب والنبات والكيمياء وغيرها ؟

يذهب فريق من العلماء إلى القول بأن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً من العلوم لأنه يعجز عن اخضاع الوقائع التاريخية لما يخضع له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة وبذلك لا يمكن فى دراسته استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو علم الكيمياء مثلاً .

ومما يبعد التاريخ عن صفة العلم من وجهة نظر هؤلاء العلماء قيام عنصر المصادفة ، ووجود عنصر الشخصية الإنسانية وحرية الإرادة ، مما يهدم الجهود الرامية إلى إقامة التاريخ على أسس علمية [1] .

(١) حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ص ١٦ .

والتاريخ ليس علماً من العلوم التجريبية ، ولكننا لا يمكننا أن ننفى عنه صفة العلم، ويرى هرنشو أن التاريخ علم نقد وتحقيق ، وأنه ليس علم تجربة واختبار ، ويعقد مقارنة بينه وبين علم الجيولوجيا كلاهما يدرس آثار الإنسان على الأرض ويتفاعل مع المخلفات البشرية كأدلة وأسانيد لما يتوصل إليه من استنتاجات .

ويرى السخاوى أن التاريخ فى اللغة يعنى الأعلام بالوقت ، ويقال أرخت الكتاب وورخته أى بينت وقت كتابته .

ويبين ابن الأثير أن للتاريخ منافع دنيوية ومنافع أخروية فأما فوائده الدنيوية فهى :

١- إن الأنسان لا يخفى أنه يحب البقاء ويؤثر أن يكون فى زمرة الأحياء فياليت شعرى ، أى فرق بين ما رآه أمس أو سمعه ، وبين ما قرأه فى الكتب المتضمنة أخبار الماضيين وحوادث المتقدمين فإذا طالعها فكأنه عاصرهم وإذا علمها فكأنه حاضرهم .

٢- أن الملوك ومن إليهم الأمر والنهى إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ، ورأوها مدونة فى الكتب التى يتناقلها الناس فيروويها خلف عن سلف ، ونظروا إلى ما اعقبت من سوء الذكر ، وقبيح الأحدوثة وخراب البلاد وهلاك العباد وذهاب الأموال ، وفساد الأحوال استقبحوها وأعرضوا عنها وأطرحوها .

٣- وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعهم من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وممالكهم عمرت وأموالهم درت استحسنوا ذلك ورغبوا فيه ، وثابروا عليه وتركوا ما ينافيه هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الأراء الصائبة التى دفعوا بها مضرات الأعداء وخلصوا بها المهالك .

٤- ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما تصير إليه

عواقبها فإنه لا يحدث أمر إلا تقدم هو أو نظيره فيزداد بذلك عقلاً ويصبح لأن يقتدى به أهلاً .

٥- ومنها ما يتجمل به الإنسان فى المجالس من ذكر شيء من معارفها ، ونقل طريفه من طرائفها فترى الاسماع مصغية إليه ، والوجوه مقبلة عليه والقلوب متأملة ما يورده ويصدره ، مستحسنة ما يذكره .

وأما الفوائد الأخروية فمنها :

١- أن اللبيب العاقل إذا تفكر فيها ورأى تقلب الدنيا بأهلها ، وتتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها ، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم ، وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم ، فلم تبق على جليل ولا حقير ولم يسلم من نكدها غنى ولا فقير زهد فيها وأعرض عنها ، وأقبل على التزود للأخرة منها ورغب فى دار تنزهت عن هذه الخصائص وسلم أهلها عن هذه النقائض .

٢- ومنها التخلق بالصبر والتأسى وهما من محاسن الأخلاق ، فإن العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبى مكرم ، ولا ملك ، بل ولا أحد من البشر ، علم أنه يصيبه ما أصابهم وينوبه ما نابهم . ويضيف ابن الأثير أن لهذه الحكمة وردت القصص فى القرآن الكريم (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) [١] .

وأما اصطلاح علم الأخبار فيطلقه المقريزى على التاريخ ، وذلك فى كتابه الخطط ، ويبين أبعاد هذا العلم فيقول : به عرفت شرائع الله التى شرعها وحفظت سنن أنبيائه ورسله ودون هواهم الذى يقتدى به من وفقه الله تعالى إلى عباراته وهداه إلى طاعته ، وحفظه من مخالفته وبه نقلت أخبار من مضى من الملوك والفراعنة ، وكيف حل بهم سخط الله تعالى لما أتوا ما نهوا عنه .

---

(١) سورة ق أية رقم ٣٧ .

وبواسطة علم الأخبار استطاع بنو البشر معرفة ما دونوه من العلوم والصنائع وتأتى لهم ما غاب عنهم من الأقطار الشاسعة ، والأقطار النائية وغير ذلك مما لا ينكر فضله ولكل أمة من أمم العرب والعجم على تباين آرائهم واختلاف عقائدهم، أخبار عندهم معروفة مشهورة ، ذائعة بينهم ، ولكل مصر من الأمصار المعمورة حوادث قد مرت به يعرفها علماء ذلك المصر فى كل عصر .

ومن خلال الآراء السابقة نجد أن فريقاً من المؤرخين المسلمين وغيرهم اعتبروا التاريخ فناً من الفنون ، وأن الفريق الآخر اعتبره علماً من العلوم .

وإننى أرى أن التاريخ علم فى حدود ما تتيحه الدراسة العلمية لموضوع من الموضوعات ، وباتباع الأسلوب العلمى فى دراستها ، وأنه فن لظهور لمسات المؤرخ الإنسان فى إخراج الصورة التاريخية ، وظهور احساسه وانطباعه فى تفسير الأحداث التى يتناولها قلمه ، فمثلاً عندما أكتب عن تاريخ المسلمين فى صدر الإسلام لابد وأن تأتى الصورة صورة متأثرة بعقيدتى وإيمانى بدور المسلمين فى رسم أبعاد تاريخهم فى تلك الفترة مهما حاولت الحيدة والموضوعية .

وبنفس القدر لو تناول هذا الموضوع مؤرخ من المؤرخين الإنجليز لجاء ت الصورة التى يرسمها لملامح التاريخ الإسلامى فى تلك الفترة متأثرة بأرائه وفهمه وانطباعه عن المسلمين فى تلك الحقبة من تاريخهم .

وعلى هذا يمكن القول بأن التاريخ مزيج من العلم والفن ، وإنه لا يمكن أن يكون علماً بمفهوم العلم التجريبى يخضع لمقاييس خاصة تنتهى بالدارس إلى الوصول إلى قوانين ثابتة أو لحقائق غير قابلة للتعديل ذلك أن قوانين العلوم التجريبية قوانين يقينية ثابتة .

وهنا نورد رأى هرنشو الذى يقول : أن التاريخ مزاج من العلم والأدب والفن فى وقت واحد .

التاريخ بين الموضوعية والذاتية :

من القضايا الهامة التى تشغل بال المؤرخين فى كل زمان قضيته الموضوعية فى تناول الموضوعات التاريخية على اختلاف أنواعها سواء ما كان يتصل بسياسة إقليم من الأقاليم ، أو أحوال أو ظواهر اجتماعية أو ما يرتبط بشخصيات إصلاحية أو زعامات قومية أو غير ذلك ، وهل يمكن أن يصل المؤرخ إلى درجة من الموضوعية يلغى فيها كل مشاعره وإحساساته وانفعالاته ويتجرد فى مناقشتها بدرجة تمكنه من الوصول إلى ما يسمى اصطلاحا بالموضوعية الحقيقية Objectivity .

وعلى الرغم من إدراكى لصعوبة الوصول إلى نتيجة نهائية فى مناقشة قضية التاريخ بين الموضوعية واللاموضوعية ، فإننى سأحلل هنا دراستها فى محاولة للوصول إلى نتيجة أو لمجرد عرض القضية للدراسة وطرحها أمام الباحثين من جديد ، ما يجعل جهداًجديداً أو رؤية تتصدى لهامن أجل الوصول إلى لقاد مشترك بين المؤرخين حولها .

والموضوعية غاية صعبة المنال ، إذا هدف إليها الباحث فعليه أن يدرك مسبقاً أنه اختار الطريق الشاق ، وأن عليه أن يقطع اشواطاً طويلة من التعب المضنى والبذل المستمر ، مع علمه بأنه قد يصل إلى مرتبة قريبة منها وقد لا يصل إليها على الإطلاق .

إن كثيراً من المهتمين بالدراسات التاريخية يتفقون على أن الموضوعية المطلقة غير ممكنه التحقيق ، ذلك أن المؤرخ إنسان ، والإنسان دائماً له انتماءات وأفكار وعواطف ومشاعر لا يمكن أن يتخلص منها نهائياً لأنه لا يستطيع ذلك وإذا تجاهلها فترة فإنها تلح عليه فى فترات أخرى وإن ارتفع فوق كل أحاسيسه زمناً فلن يستطيع ذلك أبداً ، وتأسيساً على ذلك تظل قضية الموضوعية قضية جدلية على مر العصور ، ولن يتمكن الدارسون من الوصول فيها وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ إلى حل حاسم ونهائى يرضى العقول النزيهة بأن تتوخى الموضوعية فى دراسة التاريخ وهو أمر نسبى لأن تفسير الأحداث يخضع للمزيد من الدراسات وسيظل المؤرخون فى تفسيرهم لحركة التاريخ

خاضعين للنقد وسوف نسوق مثالاً على ذلك .

فإذا تناولنا شخصية تاريخية وطلبنا إلى اثنين من المؤرخين دراستها دراسة موضوعية ، وحاول كل منهما قدر طاقته أن يكون موضوعياً بعيداً عن التحيز محاولاً رسم صورة حقيقية عن هذه الشخصية لكانت النتيجة وبعد كل تلك الافتراضات السابقة وبعد اتباع كل المؤرخين الطرق العلمية والمنهج السليم فى دراستها أقول لجاءت النتيجة بصورة نسبية .

فلو أخذنا فعلاً شخصية تاريخية مثل رمسيس الثانى لوجدنا أن واحداً من المؤرخين سيعتبره بطلا وقائداً عسكريا من الطراز الأول وسنجد مؤرخاً آخر ينتمى إلى مدرسة تاريخية أخرى يعتبره ظالماً ، قهر اليهود وأذلهم وطردهم وسنجد مرة ثالثة أن مورخاً من مؤرخى الحيثيين يؤكد أنهم انتصروا على رمسيس الثانى وفرقوا شمل جيشه . ثم يأتى مؤرخ رابع ويجمع كل الآراء السابقة من منطلق الموضوعية والحيدة والنزاهة التاريخية ويرسم شخصية رمسيس الثانى على أنه البطل القائد الذى طرد اليهود وحارب الحيثيين وهزمهم ، وصاحب أكبر مجموعة من الآثار المصرية القديمة[1]

والمؤرخ كالرسام ، يضع إطاراً عاماً وفى نطاق ذلك الإطار يبدأ فى وضع تفصيلات الصورة ، يوضح ما يرى توضيحه ويركز على ما يرى التركيز عليه ثم يسلط الأضواء على ما يعتقد أنه الحقيقة ويقدم ما تحت يديه من أدلة وقد يحكم أو يترك الحكم بعد ذلك لمن يأتى بعده .

وهو فى كل هذا يستلهم الحقيقة ، ويعمل جاهداً على توضيح ما يكتنف القضية التى يناقشها من غموض .

---

(١) اعتمدنا فى هذا الجزء من الدراسة على ، دكتورة فتحية البدراوى و دكتور محمد نصر مهنا ، مناهج البحث فى علمى التاريخ والسياسة ، مكتبة النهضة العربية القاهرة ص ٨ – ٢٥ .

وتحاول المدارس التاريخية المحدثة ، وضع أسس منهجية لدراسة التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه ، السياسى والاجتماعى والاقتصادى العام والإقليمى الدينى والعقدى ، وقد استطاعت هذه المدارس على اختلاف مذاهبها ، وتعدد مشارب وأهواء وانتماءات الباحثين فيها أن تصل إلى الخروج بالتاريخ من إطار الأسطورة والخيال القصصى إلى مصاف الدراسات الجدية الواعية التى ترتقى به إلى منهجية العلم وأسلوب التدقيق والتوثيق .

ومن المسلم به دراسة التاريخ بما توصلت إليه فى العصور الحديثة من مناهج وأساليب قد حققت تقدماً عظيماً يمكن أن تكسر التقليد القائل بأن التاريخ بطبيعته لا يمكن اعتباره علماً ، وتدخله بذلك فى مصاف العلوم النقدية ذات القيمة الاجتماعية العظيمة فهو تعبير دائم عن حركة المجتمع وحياة الإنسان فيه .

وباستخدام كل هذه الوسائل يمكن للباحثين أن يقتربوا كثيراً من الموضوعية ويقطعوا مسافة كبيرة تبعدهم عن الذاتية فى تحليلهم وتفسيرهم للظواهر التاريخية المختلفة وهو ما سوف نتعرض له فى الفصل التالى .